عرضه سريع عن

تاريخ النهضة الفكرية في السودان

للأستاذ عبد القادر رشيد الناصري

إذا أردنا التحدث عن تاريخ النهضة الفكرية في السودان فإننا لا نجد بأيدينا من الأدلة ما يكفينا للاستدلال على المعالم الواضحة التي تنير لنا الطريق أو توصلنا إلى الحجة ، فالخطوط الرئيسية مطموسة المعالم يكتنفها الغموض ويحيط بها الضباب من كل جانب ؛ فنحن إذن نسير في سبيل ملتاث وفي ظلام دامس غير منار ، ذلك لبعد الشقة بين الأمس واليوم ، ولانعدام الصلة بين الماضي والحاضر ، ولعدم وجود رابطة بين العهدين القديم والحديث ، وستظل الحلقة مفقودة إلى أن يهيئ لها الله باحثا سودانيا ينقب بجد ليكشف لنا السر المختفي وراء أطلال الماضي البعيد

وإذا أردنا الرجوع إلى الماضي فليس لدينا ما يثبت صحة قولنا غير أحاديث يتناولها الناس في مجالسهم الخاصة ، يقتلون بها الوقت أو يتسلون بها لينقلها الخلف عن السلف ، وهي أشبه ما تكون بأحاديث الرواة في العصور الأولى من صدر الدولة العباسية .. وهذه الأحاديث ينقص بعضها الثقة وبعضها السند .. على أنني تمكنت بواسطة اتصالاتي ومراسلتي مع إخواني أدباء وشعراء السودان أن أجمع مادة لبحثي هذا الذي أقدمه للقراء ، وخصوصا أبناء البلد الشقيق ، راجين منهم إيضاح ما فات عني ، ولستدراك ما قد سهوت عنه

بدء النهضة

تبدأ النهضة الفكرية في السودان منذ العهد التركي أي منذ سنة ١٨٢٠ م ، وكانت الثقافة آنذاك تحبو وتتعثر ، إلى أن هاجر بعض أبناء الجنوب إلى مصر والتحقوا بالأزهر الشريف حيث أتموا دراستهم ثم عادوا إلى بلدهم يحملون طلائع نهضة جديدة ، ولكن مهمتهم كانت مقتصرة على الوعظ والإرشاد والترنم بالمدائح النبوية ، ونظم كل ما له علاقة بالدين الإسلامي . على أن ذلك لم يمنع من التفاخر بالأمجاد . وكانت الحالة آنذاك في السودان غير مستقرة ؛ فالعصر عصر حروب واستبداد ومظالم وإرهاب وثورات داخلية وانحرافات خلقية ، بل كانت الفوضى منتشرة في القطر ، فمن فتك إلى سلب ونهب إلى تخريب إلى إقطاعية شاذة وعسف لا يطاق ، وكيف تستقر الأمور في بلد كالسودان إذا كان الجهل باسطا جناحيه على السكان ، والوعي القومي في مهده ، والشعور بالحرية مقبور . فلهذه الأسباب لم تكن العوامل آنذاك مشجعة للنهوض بالأدب ، لأن الطغيان التركي كان يحطم كل شيء ويسيطر على كل مرافق البلاد ، حتى اللغة العربية كانت متفككة الأوصال ، يكاد الدود العثماني اللعين ينخر جسدها المنهوك ويخترم عمرها وهي في الشباب

وظل السودان على هذه الحالة من العسف حتى سئم الناس المظالم ، فولد الثورة في النفوس التي تمخضت عن انقلاب شامل قامت على أثره حكومة المهدي — المهدية — التي ظلت تحكم البلاد زهاء ستة عشر عاما ، إلى أن تم الفتح الأخير على أيدي الإنكليز والمصريين في سنة ١٨٩٨ م ، إذ أبرمت الاتفاقية الثنائية لحكم السودان على النظام الحاضر

ورب قائل يقول : إذن كيف كانت الاتجاهات الفكرية في العهد «المهدوي» ؟ أقول : لم تكن هناك اتجاهات أدبية وفكرية بالمعنى المفهوم الواضح نستطيع أن نتحدث عنها أو نسجل بعضها ؛ إذ كل ما وصل إلى أيدينا من نتاج ذلك العهد هو أن الأدباء والشعراء كانوا يقصرون إنتاجهم الفكري على المدح والتغني بالأمجاد ، وكل ما نظموه لا يتعدى حدود الدين والشريعة ، وقد كان أكثر شعرهم نظما شبيها بألفية ابن مالك ومدائح البرعي في الرسول الأعظم

وهكذا استمرت الحال حتى دارت عجلة الزمن دورتها البطيئة إلى أن وقفت أمام عام ١٩٢٤ م ، حيث تمخضت البلاد عن ثورة أخذت في مهدها ، ولا أريد أن أتحدث هنا عن الثورة ،

أشكر الأستاذ الشاعر عبد الهادي مراد محمد ، على المعلومات القيمة التي كانت نواة هذا المقال

ولـكنى أحب أن أعرج على نفسية شباب ذلك العهد الذى يعتبر نقطة تحول بالنسبة للسودان من جميع النواحى ، وإيضاحا للحقيقة نقول : إن ذلك العهد بشبابه المتوثب الثائر ، كان فترة انتقال من عهد الجهل والخمود إلى عهد اليقظة والعلم والمعرفة

ففى تلك الفترة كان اتصال السودانيين بمصر الشقيقة وثيقاً ، حيث أخذت الـكتب والمؤلفات المصرية تغزو الأسواق فتتلقفها أيدى القراء ، وتقبل عليهـا النفوس فى لهفة وشوق لتروى عطشها إلى العلوم والمعارف ، وفى الحق أننا نستطيع أن نقسم ذلك العهد إلى أقسام ثلاثة هى :

١) التعليم :

كانت المدارس فى ذلك الحين قليلة العدد ، وكان باب التعليم مقصوراً على فئة قليلة معينة من الناس

٢) الصحافة :

أما الصحافة فقد كانت متأخرة وقليلة ، إلا أنه كانت هناك صحف تعنى بالأدب وبالنتاج الفكرى ، وأهمها مجلة «الفجر»(١) التى كانت كما قيل لى قد لعبت دورا خطيرا فى تاريخ السودان الأدبى ، إذ خلقت ثورة أدبية لأنها كانت المنبر الوحيد لتجاوب المواهب والعبقريات المختلفة الأشكال والثقافة ، ثم جريدتى «النيل» و « الملتق »

٣) التأثير الرسمى للثقافة :

لما كان السودان تحت الحـكم الإنجليزى ، والإنجليز يعدون أنفسهم مستعمرين وحاكمين ، فطبيعيا تكون سياستهم مناوئة لنشر الثقافة ، بل هم حاربوا العلم وسعوا فى الحد من ذيوعه ، حتى أنهم أخذوا يطاردون كل أديب متحرر وشاعر يفكر فى طردهم من البلاد ، أما تلك الحركات الأدبية والجولات القلمية التى ربت الجيل الجديد ، ما كانت إلا نتيجة للصراع الفردى الذى بذله أحرار الفكر والعقيدة فى السودان لخلق نهضة فكرية واتجاه ثقافى وأدبى مشرق الصفحات ، بارز القسمات ، إذ أنهم شعروا بضرورة العمل على خلق تلك النهضة لتؤدى خدمتهـا إلى أبناء البلاد كما ينبغى ، وإذا ما ظهرت هناك جمعيات أدبية فمعنى هـذا أن الاستعمار فى خطر ، لذلك كان الإنجليز يحاربون كل جمعية ، حتى ولو كانت غير سياسية ، على أنه رغم ذلك تأسست جمعيـة « اللواء الأبيض » ، وهى سياسية الغايات والأغراض ، ولعبت دورا هاما فى ثورة عام ١٩٢٤ ، ثم جمعية « أصدقاء الفجر » ، وهى أدبية القصد

ثم قام مؤتمر الخريجين ، وكانت غايته أدبية اجتماعية ، وقد فتح المؤتمر عدة مدارس أولية ومتوسطة وواحدة ثانوية . وكان المؤتمر يعد العدة كل عام لقيام المهرجان الأدبى الذى كان يعقد فى « أم درمان » الجزء الثالث من العاصمة ، والأبيض وعطبرة ، وأخيرا تطور المؤتمر وأعلن عن أهدافه السياسية (٢)

ثم ولدت بعد ذلك الأحزاب السياسية المختلفة ، وأنشئت الجرائد الحزبية التى لم تعد تهتم بغير المهاترات السياسية السخيفة التى لا طائل تحتها ، والتى كانت السبب فى موت الأدب وخنق قابليات الأدباء والشعراء

ومنذ سنة ١٩٤٦ اتجه السودانيون نحو السياسة وخلفوا الأدب وراءهم غير مهتمين بـكل ما يمت إلى الفن بصلة فالخطب السياسية والقصائد الحماسية هى اليوم تدور على ألسنة الناس ، وهى التى تحتلى بها أعمدة الصحف ، وإنهـا لو جمعت فى كتاب واحد لـكانت تعطى فكرة عن الأدب السياسى السودانى الآن

---

١) لم أطلع على مجلة (الفجر) وأكون شاكرا لإخوانى أدباء السودان لو تـكرموا بإرسال أعداد قديمة منها لى

(٢) جاء فى الصفحة ٩٠ ، من كتاب « ماذا فى السودان » لمؤلفه الأستاذ جمال الدين الحامى :

« فى هذه المدينة الصاخبة (أم درمان) ، وفى مكان بعيد عن الضوضاء يقوم نادى الخريجين ، والخريج ، فى السودان معناه مثقف متخرج من مدارس السودان أو التى فى مستواها ، وترجع الفكرة فى إنشاء هذا النادى الى ما قبل الحرب العالمية الأولى ، ولـكن الفكرة فى أول ظهورها لم تجد تأييدا — بل حوربت — من حكومة السودان ، ولـكن هذه الحرب لم تحل دون معاودة الفكرة مرة بعد أخرى حتى نجح الخريجون فى اقناع ولاة الأمر ، فبرز نادى الخريجين الى الوجود . فى أعقاب الحرب العالميـة الأولى ، وقد ساعد على ابراز الفكرة المستر سمبسون الذى تولى مراقبة التربية البدنية بوزارة المعارف المصرية الى وقت قريب ، وهو الذى وقف فى حفلة افتتاح النادى وقال : « ان هذا النادى الذى يفتتح اليوم ليجتمع بين جدرانه كل مثقف سيكون له أكبر الشأن فى مستقبل السودان السياسى » . ولقد تحققت نبوءة الرجل ، وأصبح النادى اليوم مركز النشاط السياسى الشعبى فى السودان

ولكن رغم انحراف الناس وراء السياسة ، وحبهم للجدل السياسى ، لا يزال بعض الشباب المتوثب يولى الفن الصادق والأدب الرفيع أهمية بالغة ، وكما أنه لا يخلو كل قطر من بعض الشعراء النابهين ، فإن فى السودان كذلك فئة من شعراء الشباب الأفذاذ ، وسنعرض لهم بالتفصيل فى مقال قادم إن شاء الله

ماذا ينقص السودان

بكل ألم وأمل نلاحظ أن السودان لا يزال متأخرا عن القافلة الأدبية العربية ، بل فى حاجة إلى كتاب ثائرين يجمعون بين قوة الفكرة واتساقها إلى جمال الأسلوب وقيمته ، كتاب ينقطعون للدراسات الأدبية والتأليف ، ويخرجون من الكتب ما يحمل طابع بلادهم الأصيل

كما يراد من أدباء السودان أن يطرقوا باب الثقافة الشعبية عن طريق المحاضرات والمدارس الأدبية التى تعلم العلوم العقلية ، والتى تربط بين طبقات الشعب عن طريق حياة جماعية مشتركة ، والتى تنمى فى نفوس أبناء الأمة روحا من المساواة الاجتماعية ، وتمنحهم إلهاما ومثلا إنسانيا رفيعا يؤدى إلى تطور اجتماعى لا يقوم على نضال اقتصادى بين الطبقات ، تثيره الأطماع المادية وروح الشر والقسوة والجنب الروحى

الشعر السودانى

من الإنصاف للواجب والإثبات للحقائق أن نقف لحظة نتناول فيها الشعر السودانى بكلمة . وهى أن الباحث الذى يقرأ كتاب « شعراء السودان » ، الذى جمعه الكاتب المصرى سعد ميخائيل منذ سنوات ، يلاحظ أن الشعراء المذكورين فى ذلك الكتاب لا ذكر لهم الآن ، ولذلك عدة أسباب : فمنهم من مات ، ومنهم من انغمر فى الحياة فهجر الشعر ، ومنهم من حطمته قيود الوظيفة ، وبعضهم لم تساعده الظروف المالية على طبع ديوانه ونشره حتى اليوم . لأن السودان — وهو كالعراق تماما — يفتقر إلى الناشر ، إلا أن بعضهم — وهم الشيوخ — ظل مستمرا على النشر ، كالأستاذ « محمد سعيد القياسى » الذى كتبت عنه فى عدد سابق ، و « الأستاذ عبد الله عبد الرحمن » [٣] و « التيجانى يوسف بشير » [٤] ؛ أما الشعراء الشباب المعاصرون — وهم كثر بحمد الله — فأترك البحث عنهم إلى مقال مستقل ، لأن روحيتهم وأسلوبهم الفنى يختلف بكثير عمن ذكرتهم ، وهؤلاء جميعا يطلب منهم أن يكونوا أكثر جرأة من غيرهم ، فليقتحموا الحياة بجرأة وعزيمة صادقة ، وليقفوا أمام العالم العربى ويظهروا نتاجهم للناس ، غير عابئين بناقد أو حاسد ، وإلا فإن انطواءهم على نفوسهم معناه الموت والضياع ، لا سيما وأن فيهم من يبشر شعره بالخير العميم والعبقرية الكامنة وراء زوايا النسيان . .

(٣) ليست أدرى حتى للأستاذ شعر مطبوع بين دفتى ديوان أم لا ، فانى لم أطلع الا على بعض قصائد بين ثنايا الصحف

(٤) صاحب ديوان اشراقة وقد كتبت عنه فصلا فى مجلة الرسالة قبل أسابيع

بغداد — أمانة العاصمة . عبد القادر رشيد الناصرى

آلام فرتر

للأستاذ أحمد حسن الزيات

هى القصة العالمية الواقعية الخالدة للشاعر الفيلسوف « جوته » الألمانى

طبعت خمس مرات وثمنها ٢٥ قرشاً عدا أجرة البريد